

تجربتي في جمع وبحث التراث اللامادي في منطقة الزيبان

Mon expérience dans la collecte et la recherche du patrimoine
immatériel dans la région de Biskra

أ. د. عبد الحميد بورايو

أستاذ التعليم العالي بالمركز الجامعي بتيبازة. البريد الإلكتروني: bourayou1950@gmail.com

ملخص:

قمت خلال سنة 1976م ببحث ميداني في مجال التراث اللامادي؛ يتعلق بمادة القصص الشعبي، اطلعت في رحلاتي الميدانية على فعاليات تقاليد الرواية الشعبية في منطقة بسكرة؛ وقد قسمتها إلى ثلاثة أصناف؛ نشاط الرواة المحترفين، ونشاط الرواة شبه المحترفين ونشاط الرواة غير المحترفين. سوف أعطي في عرضي لتجربتي هذه بوصف هذه الفعاليات وبيان طبيعتها ودورها في صيانة الذاكرة وفي تفعيل التواصل الثقافي بين أفراد المجتمع، وقتذاك، وفق تقاليد متوارثة، وقواعد مرعية، يسهر على استمرارها أهل المنطقة بإمكانياتهم الذاتية بدون تدخل للمؤسسات الرسمية المعنية بالنشاط الثقافي. سوف أتعرض في مداخلتني لهذه الفعاليات كما تعرفت عليها في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، وما آلت إليه بعد ذلك بفعل إهمالها وعدم وضع خطة لحفظها ونقلها للأجيال الجديدة، كما سأقدم اقتراحات تتعلق بإمكان صون ما تبقى منها ومحاولة استعادة البعض منها وترهينه من خلال النشاطات الثقافية المختلفة.

الكلمات المفتاحية: بسكرة، التراث اللامادي، القصص الشعبي، تقاليد الرواية الشعبية، الغزو الثقافي.

Résumé:

En 1976, j'ai mené des recherches de terrain dans le domaine du patrimoine immatériel. Concernant le sujet des contes populaires, j'ai pris connaissance lors de mes sorties sur le terrain des activités des traditions de contes populaires dans la région de Biskra ; Je l'ai divisé en trois catégories : L'activité des narrateurs professionnels, l'activité des narrateurs semi-professionnels et l'activité des narrateurs non professionnels. Dans ma présentation de cette expérience, je prendrai soin de décrire ces activités et d'expliquer leur nature et leur rôle dans la préservation de la mémoire et dans l'activation de la communication culturelle entre les membres de la société, à cette époque, selon les traditions héritées et les règles observées, dont les habitants de la région assurent la continuité avec leurs propres capacités sans interférence des institutions officielles concernées par l'activité culturelle.

Dans mon intervention, je parlerai de ces événements tels que je les ai connus au milieu des années 70 du siècle dernier, et de ce qui leur est arrivé par la suite en raison de leur négligence et de l'absence de plan visant à les préserver et à les transmettre aux nouvelles générations. Je présenterai également des suggestions relatives à la possibilité de préserver ce qui en reste et d'essayer de restaurer certains d'entre eux et de les hypothéquer par le biais de diverses activités culturelles.

Mots clés : Biskra, patrimoine immatériel, contes populaires, traditions de contes populaires, invasion culturelle.

قمت خلال سنة 1976م ببحث ميداني في منطقة الزيبان يتعلق بمجال التراث اللامادي؛ يتناول موادّ القصص الشعبي، اطلعت خلاله، في رحلاتي الميدانية، على فعاليات تقاليد الرواية الشعبية في منطقة بسكرة؛ وقد قسمتها إلى ثلاثة أصناف؛ نشاط الرواة المحترفين، ونشاط الرواة شبه المحترفين ونشاط الرواة غير المحترفين. سوف أعتني في عرضي لتجربتي هذه بوصف هذه الفعاليات وبيان طبيعتها ودورها في صيانة الذاكرة وفي تفعيل التواصل الثقافي بين أفراد المجتمع، وقتذاك، وفق تقاليد متوارثة، وقواعد مرعية، يسهر على استمرارها أهل المنطقة بإمكانياتهم الذاتية بدون تدخل للمؤسسات الرسمية المعنية بالنشاط الثقافي. لقد كانت هذه التقاليد سارية منذ الفترة الاستعمارية، عملت على حفظ عناصر الهوية، وقامت كسد منيع في وجه الغزو الثقافي الاستعماري، ولعبت دورها في التنشئة الثقافية والاجتماعية لأفراد المجتمع وكان بإمكانها أن تستمر في ظلّ الدولة الجزائرية المستقلة لو وجدت الرعاية والتوجيه عن طريق الصيانة والنقل للأجيال الجديدة.

سوف أتعرض في مداخلتي للتحديدات العامة المتعلقة بالتراث اللامادي، والذي تندرج فيه اهتماماتي البحثية، وما قمت به من أعمال جمع وبحث ودراسة لها صلة بتراث منطقة الزيبان. أنتقل بعد ذلك للحديث عن هذه الفعاليات كما تعرفت عليها في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، وما آلت إليه بعد ذلك بفعل إهمالها وعدم وضع خطة لحفظها ونقلها للأجيال الجديدة.

1. تحديدات لما يُقصد بالتراث اللامادي

يجدر بنا قبل كلّ شيء تحديد طبيعة الموادّ التي نحن بصدد الحديث عنه، من حيث اندراجها فيما سمّته الاتفاقيات الدولية بالتراث اللامادي، وبالتالي لابدّ أن نذكر بطبيعة هذا التراث، وهو حسب المادة 2 من الاتفاقية الدولية بشأن صون التراث الثقافي غير المادي، والمعنونة "التعاريف":

«1- يُقصد بعبارة "التراث الثقافي غير المادي" الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات -وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية- التي تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحيانا الأفراد، جزءا من تراثهم الثقافي. وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلا عن جيل، تدعاه الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة بما يتّفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة والتاريخ، وهو ينمي لديها الإحساس بهويّتها والشعور باستمراريّتها، ويعزّز من ثمّ احترام التنوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية. ولا يؤخذ في الحسبان لأغراض هذه الاتفاقية سوى التراث الثقافي غير المادي الذي يتّفق مع الصكوك الدولية القائمة المتعلقة بحقوق الإنسان، ومع مقتضيات الاحترام المتبادل بين الجماعات والمجموعات والأفراد والتنمية المستدامة.

2- على ضوء التعريف الوارد في الفقرة (1) أعلاه يتجلى "التراث الثقافي غير المادي" بصفة خاصة في المجالات التالية:

(1) التقاليد وأشكال التعبير الشفهي، بما في ذلك اللغة كواسطة للتعبير عن التراث الثقافي غير المادي.

(2) فنون وتقاليد أداء العروض.

(3) الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات.

(4) المعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون.

(5) المهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية.

3- ويقصد بكلمة "الصون" التدابير الرامية إلى ضمان استدامة التراث الثقافي غير المادي، بما في ذلك تجديد هذا التراث وتوثيقه وإجراء البحوث بشأنه والمحافظة عليه وحمايته وتعزيزه وإبرازه ونقله، لا سيما عن طريق التعليم النظامي وغير النظامي، وإحياء مختلف جوانب هذا التراث¹.

انطلاقاً من هذه التعاريف يمكن القول بأنّ "التراث غير المادي" يتعلّق بعدة مجالات للنشاطات البشرية في حياتها اليومية والعامة، ونذكر هنا التصنيف الذي وضعه خبير اليونسكو في التراث اللامادي عبد الرحمن أيوب؛ ويتمثّل في²:

1- الفعل.

2- القول.

3- الإدراك.

4- التجسيّدات.

وهي جميعاً ممارسات إنسانية تتعلّق الأولى (الفعل) بما تتقنه الأيدي من مهارات تنتقل عن طريق التعليم والتكرار والممارسة اليدوية المستدامة وتكون المواد التي يُمارس عليها التشكيل والقلوبه متمثلة في المواد الطبيعية من خشب وحديد ونحاس وجلد وصوف وقماش وصلصال الخ...

وتتناول الثانية الممارسات اللسانية وخاصة اللهجات في تنوعها وتفاعلها وتعبيرها عن حياة الإنسان وعواطفه وتصورات، وكذلك فنون القول الشعبية والمسماة بالأدب الشعبي مثل الشعر والحكاية والمثل واللغز الخ.. وتتمحور الثالثة حول مُدركات الذهنية الجمعية للعالم الأخرى وهي مُدركات تتعلّق بتصوّر

¹- نص الاتفاقية، المُحرّر في باريس بتاريخ 17 أكتوبر 2003م.

²- عبد الرحمن أيوب، 2007م.

الإنسان لعوالم موازية لعوالمه، فيلجأ في التعامل معها إلى فعل القول (التعبير اللساني) وتفعيل مواد الطبيعة لإنتاج الروائح (البخور والأدخنة مثلاً) والتفتّح بهيئات حيوانية وممارسة ألعاب تنكّرية في إطار طقوس دورية أغلبها يتعلّق بالحياة الزراعية. الخ.. أمّا الرابعة فتتجسّد خاصة في العلامات (أو الرموز) والأداءات اللعبيّة (المتعلقة بألعاب المنافسة والتباري). يمكن تقسيم العلامات التي لها دلالاتها في حياة الناس وفق مجالات متعدّدة من بينها طبيعة المواد التي تحمل هذه الرموز والمناسبات التي تظهر فيها وطبيعتها الثقافية (وشم، حروف، خطوط متقاطعة أو معقوفة وأشكال هندسية مغلقة، تخضيب بالحناء وفق أشكال معينة لمواقع جسدية بشرية أو حيوانية الخ..). أو الطبيعّية (الكونية) وأشكالها البشرية (كصور أعضاء الجسد مثل الخُمسة والعَيْن وغيرها) أو الحيوانية (من مكونات جسد الحيوان كالناب أو الظفر أو الشعر الخ..). أو النباتية أو الكونية الخ.. أما التجسيّدات اللعبيّة فتتمثّل في الممارسات بقصد الترفيه وتزجية الوقت وشحن الذكاء العملي وتربيته، والتعبير عن الطاقة الجسدية وعن إتقان المهارات الحركية وتحقيق الذات من خلال التباري ولفت انتباه الآخر والتواصل معه.

تمّ الفصل بين هذه المجالات بغرض فهمها انطلاقاً من طبيعتها الفكرية ومركزاتها النظرية، وبهدف تسهيل عملية التصنيف والدراسة، ويجدر أن نشير إلى تداخلها فيما بينها، وممارستها تكون عادة بالجمع فيما بينها؛ فالقول كثيراً ما يصحب الفعل، والتجسيّدات الحركية تعبر عن مدركات تصوّرية، وتصاغ المدركات في قوالب لغوية ورمزية الخ..

2. تجربتي البحثية في منطقة الزيبان:

يتمثّل التراث الذي اعتنيتُ به في تجربتي المتعلقة بالقيام ببحث ميداني³ بالممارسات الثقافية الثانية في الترتيب المشار إليه آنفاً والتي تنضوي تحت عنوان "القول". كان الهدف من العمل الميداني جمع التراث القصصي في منطقة بسكرة التي كانت تضمّ حينها إلى جانب منطقة بسكرة منطقة وادي سوف. تركّزت عنايتي برواة المأثور السردية، غير أنّ طبيعة العمل الميداني وظروفه وقتذاك دفعتني إلى الاهتمام بأصناف أخرى من "القول" تمثلت في الشعر الشعبي ورواته وممارسي إبداعه.

1.2. رواة القصص الشعبي في سيدي خالد:

وجدتُ في بلدية سيدي خالد (دائرة أولاد جلال) في سنة 1976م عدداً هاماً من رواة الحكاية من مختلف الأعمار، والمنتمين لأوساط اجتماعية متنوعة، بعضهم يمارس الفلاحة وبعضهم الآخر يمارس التجارة ومنهم الشيوخ المتقاعدين والتلاميذ في المدارس. منهم المتعلمين ومنهم الأميين؛ كنتُ أجمعهم من

³ نشرت نتائج البحث في كتابي: بورايو، عبد الحميد، 2008م.

حين لآخر في فضاء بيت للمرحوم أحمد دلول في الدشرة، التي كانت تمثل نواة المدينة وحيها القديم، وأطلب من بعض الحاضرين رواية حكاية خرافية أو أحداثا كانوا يعتقدون أنها تاريخية تتعلق بالمنطقة أو بحياة أسلافهم وخاصة قبيلة بني هلال التي ينحدر منها عدد كبير من سكان المنطقة. سجلت مروييات صنفها إلى: 1- حكايات شعبية. و2- حكايات خرافية. و3- حكايات بطولية.

تمثل الحكايات الشعبية الصنف الأكثر بروزا والذي يمكن أن يرويه الجميع، في أي وقت من اليوم، وفي أي مكان ولا يتطلب حضور جمهور، بل يمكن أن يرويه شخص لآخر من أجل ضرب المثل أو بهدف التسلية وتزجية الوقت، وهو يتناول موضوعات الحياة اليومية، وله صلة وطيدة بفلسفة الحياة والنظرة إلى العلاقات الاجتماعية والقيم التي يقتنع بها الناس ويكرسها المجتمع، وله صلة كبيرة بالمعتقدات. يتميز بالقصر أو بالطول المتوسط، وينتقل عن طريق الرواية الشفوية. يعبر عن الحياة النفسية والعلاقات الاجتماعية، لا يخضع لإطار نمطي مثلما هو الحال بالنسبة للأنماط الأخرى.

تعكس الحكاية الخرافية رؤية أسطورية للكون وللوجود البشري وتقابل بين عالمين؛ عالم بشري وعالم آخر مسكون بالوحوش الخرافية والكائنات الخفية، محملة بالرموز التي تقابل بين ما ينتمي للطبيعة وما ينتمي للثقافة. تحمل قيما اعتقادية بائدة تعود إلى عصور موهلة في القدم. تنتصر للإنسان وتشيد بذكائه وقدرته على ترويض الطبيعة وتحويلها لخدمته، تعكس رهبته ومخاوفه من قساوة المحيط الطبيعي ومن المجهول. تشيد بالقيم الاجتماعية السائدة وبالعلاقات الأسرية المسيطرة على الأسرة الذكورية (البطرياركية)، وتتبدد القيم المخالفة لها (المتعلقة بقيم الأسرة الأموسية "الماترياركية"). ترويها عادة النساء في البيوت للأطفال. غير أن بعض الرجال يروونها للتسلية في الأماسي. لها طقوسها النمطية بحيث تُؤدَّى ليلا ويحضرها الأطفال ويستمتعون بها، وينامون على روايتها.

تتفرع حكايات البطولة إلى نوعين رئيسيين هما: أ- قصص البطولة الدينية. ب- قصص البطولة البدوية. تتجسد الأولى في نوعين فرعيين هما: أ- المغازي. ب- قصص الزهاد والأولياء بينما الثانية يُقصد منها السيرة البطولية، وقد عرفت منطقة الزيبان سيرتين بطوليتين كانت روايتهما منتشرة فيها هما سيرة عنزة وسيرة بني هلال.

ما كان يروى في سيدي خالد بخصوص قصص البطولة سيرة خالد بن سنان العبسي وقصص الأولياء المحليين، أما بقية الأنواع فقد سجلت بعض الإشارات إلى وجود أدائها سابقا عندما كانت الأسواق تُقام ويأتيها الرواة المحترفون من كل صوب (المداحون)، وخاصة بمناسبة سوق يوم 26 من شهر

رمضان، وهي ذكرى مرور ركب الحجيج بالبلدة في هذا التاريخ، وقد أصبحت هذه المناسبة موعدا دوريا (سنويا) يشكل مناسبة اقتصادية وثقافية لها مكانتها في حياة منطقة الزيبان.

2.2. ممارسة الرواية المحترفة في ولاية بسكرة في منتصف السبعينيات من القرن الماضي:

يروى عادة الرواة المحترفون أو من يسميهم المجتمع "المدّاحين" قصص البطولة بتنوعاتها، وقد استمعت إليه في أسواق بسكرة وطولقة ووادي سوف. كان المداحون يترددون على سوق "الحشيش" في ضاحية بسكرة القديمة، وكان من بينهم مداحين يحملان نفس اللقب، وهو "بن علي"، أحدهما كان ضريرا، وكانوا يجمعون حولهم رواد حلقاتهم في الفترة الصباحية من النهار، وكثيرا ما كانوا يتناوبون فيما بينهم في أداء الروايات ويتقاسمون ما يحصلون عليه من هبات أثناء الرواية في لحظات التوقف عن الأداء وحث الناس على المساهمة في دفع مقابل عملهم. أما في وادي سوف فقد كان "قدور السوفي" الملقب بـ"بوحباكة" يؤدي لوحده رواية قصص البطولة ويرفقاها بالغناء وبرواية قصص الحيوان وأشكال أخرى من الروايات السردية والأحاديث، وكان يلقي إقبالا كبيرا من جمهور الشباب والأطفال.

كان المداحون في ممارستهم لرواية القصص يستخدمون الآلات الموسيقية فيؤدون بعض المسرودات القصصية غناء. كانوا يستعملون القصبة والبندير على الخصوص. وقد دلّني البعض على راوٍ كان معروفا في وادي سوف لكنه اعتزل الأداء في السوق وأصبح يؤم حية في الصلوات الخمس في المسجد بالصح، وهو المسمى "العيد النبلي"، وكان ضريرا، فقصدته في بيته وسجلت منه عددا من المغازي والقصص الديني الذي كان يحمله ويروي، وكان ينشط الأعراس في حية بالمدينة عن طريق رواية قصة سيدنا يوسف أمام النساء، وكان عازفا جيّدا على آلة الربابة (كمنجة مهجّنة تُستخدم فيها أوتار آلة الربابة القديمة يتم تثبيتها على هيكل كمنجة حديثة) التي تصاحبه في أدائه الفنية.

قائمة الببليوغرافيا:

1. نص الاتفاقية، المُحرَّر في باريس بتاريخ 17 أكتوبر 2003م.
2. عبد الرحمان أيوب، دليل مسير أنظمة الكنوز الإنسانية الحية بالمغرب العربي، نواكشوط، موريطانيا، 2007م.
3. بورايو، عبد الحميد، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، ط1: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ط2: وزارة الثقافة، الجزائر، 2008م.